

عنوان المحاضرة رقم 01: الأوضاع الثقافية بالجزائر في بداية العهد العثماني

د . حميدي أبوبكر الصديق

السنة الثانية ماستر

التخصص : تاريخ الجزائر الحديث

المقياس: تاريخ الجزائر الثقافي

مقدمة

من المعلوم أن الشائع عن الحياة الثقافية في العالم الإسلامي في هذه المرحلة كانت تتسم بالتراجع والضعف وهذا قياسا لما كان سائدا أثناء العهد الذهبي للحضارة الإسلامية - الأموية والعباسية والموحدية - حيث كان قمة الإنتاج العلمي والفكري وما صاحبه من توسع سياسي وفتوحات . وبالتالي منذ تراجع الموحدين في الغرب الإسلامي وسقوطهم ظهر جليا التراجع الثقافي والفكري والإنتاج العلمي والفوضى السياسية بالمنطقة .

الأوضاع الثقافية في الجزائر في بداية العهد العثماني :

كانت معظمها في الدراسات المتعلقة بالعلوم الشرعية والصوفية ونفس الشيء بالنسبة للإنتاج العلمي ، إضافة إلى المجالات الأدبية ، وهناك من وصفها أحيانا بأنها تفتقد للتجديد أو الأصالة ، وكثر فيها التقليد والتكرار والحفظ للمتون . فالفقهاء قلما اجتهدوا أو استقلوا بأرائهم . حتى أن البعض منهم إذا ما حاول الخروج عن المألوف أو الشذوذ برأيه اجتمع لأجله المجلس الشرعي وأحيانا عزل من منصبه أو وظيفته .

وقد حاول البعض من العلماء المتمكنين كسر هذا الجمود أمثال عبد الكريم الفكون (ق 17) وأحمد بن عمار ، ومحمد العنابي ... وغيرهم . وحاولوا التكيف والاجتهاد وتنبيه الأمة إلى التخلف وضرورة إعمال العقل والاجتهاد في قراءة النصوص الشرعية . وخاصة إذا علمنا أن علماء هذه المرحلة اعتمد في معظمهم على نصوص الفتاوى الجاهزة دون ترجيح أو الجمع والتوفيق بين المتشابهين ، أو الفرق بين المسألتين ... وصار في بداية المرحلة ندرة في الاجتهاد أو ممن قدم الاجتهاد العقلي على التقليد (الرواية) .

فهم يرددون أقوال القدماء حفظا وسردا لا نظر ولا تفكير لهم فيها ، وكان التظاهر بقوة الحافظة ، وكما يحفظ ذلك العالم من كتب ومتون . فكثيرا ما وُصف المقري بحافظ المغرب

الأوسط ولما خرج من المغرب نحو المشرق قيل خلت البلاد من مثله مضاهيه .ونفس الكلام قيل عن أبي راس الناصر من حفظ وتقليد .

ولهذا كانت ثورة ابن الفكون والعنابي (السعي المحمود في نظام الجنود) وابن عمار وابن عمار على هذا الوضع الفكري والعلمي في نهاية العهد العثماني .وكانت ظاهرة التقليد وقلة التجديد قد انعكست على الإنتاج العلمي فمثلا المشتغل بالتفسير يحتاج إلى معارف موسوعية ودقيقة (تاريخ وأدب ولغة وبلاغة وأنساب وفقه وأصول) وهذه المعارف كانت محدودة وقليلة ما تتوفر في المشتغلين بالعلوم الشرعية وتدريسها فانعكس ذلك على مصنفاتهم العلمية لمحدودية ثقافتهم ولم يظهر مفسرون كبار أثناء هذه الفترة .

ونفس الشيء بالنسبة لعلم الحديث الذي تركز على علم الأسانيد ومنح الإجازات وكذلك الفقه ، فلم يُكتب في الفقه عملا أشبه بالمعيار للونشريسي أوفي التفسير ما يضاهي (الجواهر الحسان) للثعلبي .

وإذا كان عدد المساجد في القرن السادس عشر غير دقيق إلا أنها تلعب الدور الرئيسي في الحياة العلمية والثقافية . ولكنها تطورت وتكاثرت فهناك من قال أنها حوالي 100 مسجد بالعاصمة منها 07 رئيسية في نهاية العهد العثماني وبداية الفرنسي¹ ومنهم من ذكر أنها بلغت 176 سنة 1862 بين مسجد وزاوية وقبة...² وهذا يحيلنا أن الوضع الثقافي تطور بشكل ملحوظ عبر السنين من خلال أداء هذه المساجد والزوايا .

فقد لعبت الزوايا نشاطا مهما في توعية السكان وتوجيههم الروحي والثقافي وعوضت الفراغ بفعل الفوضى السياسية في أواخر العهد الحفصي والزياني وخطورة الغزو الإسباني .وقد قال احمد توفيق المدني : " إن الزوايا خاصة ببلاد القبائل استطاعت أن تحفظ الإسلام بهذه البلاد في حضور الجهل والظلمات " ³.

وكان تدمير بجاية في 1510 م 916 هـ وحرق مخزونها العلمي أن أضر بهذه الحاضرة العلمية كمركز للثقافة الإسلامية وغياب أي سلطة مركزية تدافع عن ذلك مما حمل شيوخ الزوايا والأعيان التكفل بالدفاع عن مثل هذه المدن والمراكز ⁴.

وعموما أن الحياة الثقافية في العهد العثماني تأثرت كثيرا بالعوامل التالية :

- 1 - الاضطرابات السياسية قبل العثمانيين وطبيعة الحكم العثماني في التعامل مع الحياة الثقافية
- 2 - أن الحياة الثقافية تغذت بالثقافة الأندلسية في مختلف المجالات وخاصة بعد 1609 والهجرة الأندلسية الواسعة .

3 - انتشار التصوف بشكل واسع فطبع الحياة الثقافية تدريسا وتأليفا وفي علم الكلام

1 - هايدو

2 - ديفوكس

3 - في الهوية والانتماء ص 140 .

4 - نفسه ص 141.

